

أساطير بيضاء

كتابة التاريخ والغرب

تأليف: روبرت يانج
ترجمة: أحمد محمود



المشروع القومي للترجمة



616

المشروع القومي للترجمة

أساطير ييضاء

كتابة التاريخ والغرب

تأليف : روبرت يانج

ترجمة : أحمد محمود



المشروع القومي للترجمة

إشراف : جابر عصفور

- العدد : ٦١٦

- أساطير بيضاء :

كتابة التاريخ والغرب

- روبرت يانج

- أحمد محمود

- الطبعة الأولى ٢٠٠٣

هذه ترجمة كاملة لكتاب

WHITE MYTHOLOGIES

Writing History and the West

Robert Young

Routledge

London and New York 2003

..

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمجلس الأعلى للثقافة

شارع الجبلية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت ٧٣٥٢٣٩٦ فاكس ٧٣٥٨٠٨٤

El Gabalaya St., Opera House, El Gezira, Cairo

Tel : 7352396 Fax : 7358084.

تهدف إصدارات المشروع القومي للترجمة إلى تقديم مختلف الاتجاهات والمذاهب الفكرية للقارئ العربي وتعريفه بها ، والأفكار التي تتضمنها هي اجتهادات أصحابها في ثقافتهم ولا تعبر بالضرورة عن رأى المجلس الأعلى للثقافة .

المحتويات

7 مقدمة الطبعة الثانية
51 مقدمة الطبعة الأولى
55 الفصل الأول : أساطير بيضاء
89 الفصل الثاني : الماركسية ومسألة التاريخ
103 الفصل الثالث : مبالغات سارتر
137 الفصل الرابع : النقد العلمى للتاريخانية
175 الفصل الخامس : أوهام فوكو
211 الفصل السادس : غارة جيمسون
259 الفصل السابع : الاستشراف المشوش
295 الفصل الثامن : تناقض هومى بابا الظاهرى
323 الفصل التاسع : سيفاك : نقض الكولونيالية والتفكيك
353 بيبولوجرافيا

مقدمة الطبعة الثانية

أساطير بيضاء فى هافانا

يسقط ضوء الشمس فوق المباني الذهبية المترامية على طول ممشى الميلاكون الممتد على الشاطئ حتى هافانا القديمة. أطيل النظر فى البحر فى اتجاه ميامى وأنا جالس على السور الخرسانى أفكر فى الأجيال التى رست فى هذا الميناء؛ الفاتحين الأسبان، والسفن المحملة بالعبيد المجلوبين من غرب أفريقيا، والقراصنة والمغامرين البريطانيين الآتين للاستيلاء على الجزيرة فى عام ١٧٦٢، والقوات الأمريكية التى وصلتها فى عام ١٨٩٨، والقوات الأمريكية التى تصل فى عام ألفين و...؟ *Cette blancheur implacable* (هذا البياض القاسى) ؛ لقد تدحرجت الموجة وراء الأخرى من الفاتحين البيض على أمواج البحر المتكسرة على الشاطئ وعيونها على هذه الجزيرة التى هى مطمع الرغبة الإمبريالية.

أسير على الشاطئ فى اتجاه لا بونت وأنا أفكر فى تاريخ كوبا، وهو كفاح طويل آخر ضد القمع الكولونى والكولونىالى الجديد موازٍ بشكل مؤلم لكل فترة متعاقبة مختلفة من فترات التاريخ الكولونىالى والإمبريالى. تحدث إلى كل مكان تقريباً ذهبت إليه بعد "أساطير بيضاء" بهذه الكيفية عن تواريخ من هذا النوع. لقد قذف بى الكتاب داخل قصص أحاول التعرف عليها واستعادتها وتنقيحها منذ ذلك الوقت. إنها تمثل أنواعاً شتى من التاريخ، ولا يمكن اختزالها رغم تشابهها إلى قصص أخرى، أو إلى أى إطار واحد. فهى تواريخ يمكن روايتها بأشكال عدة، وقولها بطرق مختلفة، وتصورها من أكثر من منظور. وفى كل مرة أكتب عن أحدها أجد نفسى فى حضرة غيابات جديدة، وأشياء جديدة لم يسبق لى الكتابة عنها، وجولات وخطوات مفاهيمية لابد من القيام بها. فالكتابة عن تواريخ دول القارات الثلاث، قارات الجنوب الثلاث، تعنى الكتابة عن هفوات التاريخ نفسه. عن الفضاءات التى طمسها البياض القاسى الذى لا يعرف الرحمة.

كان الكتاب شيئاً غريباً حين ظهر فى عام ١٩٩٠؛ فما الذى يدور حوله على وجه الدقة؟ فى ذلك الوقت لم يكن هناك علم واضح أو موضع بعينه يمكن أن يوضع فيه، حيث لم يكن هناك شىء اسمه "دراسات ما بعد كولونىالية". والواقع أنه عند الاتجاه نحو فصوله الأخيرة التى تتناول أعمال إوارد سعيد وهومى بابا وجاياترى سبيفاك يمكن رؤية الكتاب، إن أنتم عدتم بالنظر إلى الوراء، على أنه إعلان عن ظهور مجال نظرى جديد كان وقتها فى طور التكوين، وكان ذلك أول كتاب يوضحه ويعرفه. لقد كُتب "أساطير بيضاء" ليكون بمثابة مداخلة سياسية فى مشهد النظرية الغربية المعاصرة. ولأن الكتاب كان مكثفاً من الناحية الفلسفية، ويخلق إشكالية بطرحه مسألة، قليلون من اعتبروها مشكلة، ويشق طريقه عبر مسار نظرى خرج عنه عند نقطة المأزق المتكرر، ويرفع تلك العضلة على محور الارتكاز كى تتخذ اتجاهاً مختلفاً، فقد كان دعوة غامضة من أصداء متشظية لعالم مختلف، هو الجزائر والهند وفلسطين....

أوضح إوارد سعيد بحسم فى سلسلة متعاقبة من الكتب نشرها منذ ١٩٧٨ الافتراضات المركزية العرقية التى يقوم عليها جزء كبير من المعرفة السياسية والثقافية الأوروبية وما تبعها من آثار على السياسات والممارسات التاريخية والسياسية المعاصرة^(١). وصعوبة كتاب الاستشراق الحقيقية - من نواح عدة - هو أن نقده كان موافقاً للخطاب النقدي اليسار داخل أوروبا، مثلما هو موافق لخطاب اليمين. ويقول إوارد سعيد إن ماركس نفسه كان كامناً فى "الرؤية الاستشراقية الرومانسية" التى يناقشها كتاب الاستشراق مناقشة نقدية^(٢). لقد كان، كما قال برايان تيرنر Bryan Turner فى "ماركس ونهاية الاستشراق" Marx and the End of Orientalism ، وهو كتاب نُشر فى نفس عام نشر كتاب الاستشراق، إنه من الضروري الآن إحداث "نقض كولونىالية" التراث الماركسى الأوروبى^(٣). وشكّل مشروع نقض الكولونىالية ذلك المقدمة المنطقية المؤسسة لـ "أساطير بيضاء". فقد كانت نقطة بدايته هى نقد إوارد سعيد للتاريخانية:

**فيما يتعلق بالاستشراق بصورة خاصة والمعرفة الأوروبية
بالمجتمعات الأخرى بصورة عامة، كانت التاريخانية تعنى تاريخاً
إنسانياً واحداً يجمع البشرية، إما بلغ الذروة أو كان يُراقب من
موقع الهيمنة الخاص بأوروبا، أو الغرب.... إن ما ... لم يحدث**

الاجتماعية الجديدة"؛ وهى على وجه الدقة "جديدة" إلى حد أنها فتحت حدود اليسار كى تشمل حركة المرأة، والكفاح ضد العنصرية، وكراهية المثليين، وقضايا الحفاظ على البيئة، والإيكولوجيا، والتنمية المستدامة، وغيرها، فى سياق إحساس متزايد بأن الماركسية الأوروبية التقليدية كانت فى حد ذاتها إشكالية مثل نظرية التنمية الرأسمالية الغربية الخاصة بدول الجنوب. وكانت تلك الحركات الاجتماعية الجديدة كذلك، إلى حد أنها شكلت نفسها بناءً على نماذج إرشادية وأشكال غير سائدة للفعالية activism السياسية خلقت خارج الغرب، داخل الكفاح المناهض للكونيالية بصورة عامة.

هذا هو السياق الذى شعرت فيه بأن ماما شديد المحدودية فى رؤيته للعالم، ومع أنه كان يُعبر بانتظام عن تعاطفه وتضامنه مع كفاح الشعوب خارج الغرب، فإن ذلك لم يكن يراعى فى تفكيره السياسى على المستوى النظرى أو الفلسفى. فقد ظلت المناقشات النظرية مركزة بإصرار على القضايا الغربية، والظروف الغربية، والمنظرين الغربيين، والأشكال الأخرى من الماركسية، حيثما كان يُعترف بها، وكانت فى الغالب مرفوضة باعتبارها قوميات ماركسية غير أصيلة. بل إن مجلة "ذا نيو لفت ريفيو" **The New Left Review** ، التى كان مشروعها الأصلى هو إتاحة الماركسية البريطانية للعمل النظرى الذى يجرى على القارة الأوروبية، وكانت تنشر فى بعض الأحيان مقالات عن الكفاح خارج أوروبا، ظلت أوروبية بإصرار فى تركيزها النظرى على "الماركسية الغربية"، رغم إصلاحات النظرية الماركسية التى نفذها فى ذلك الوقت القادة المناهضون للكونيالية مثل كابرال وفانون وموندلانى ونيثو^(٩). كما لم تراعى النظرية الماركسية فى الغرب الأشكال الأخرى من الاستغلال أو القمع أو المقاومة، ولم تتعامل بجدية مع العمل النظرى فى هذه المجالات الذى أبدع خارج الدائرة السحرية لأوروبا وأمريكا الشمالية. ولم يتغير هذا الوضع تغيراً ضخماً فى الوقت الراهن. ولنأخذ على سبيل المثال مقال جوران ثيربورن Goran Therborn "جدل الحداثة: عن النظرية النقدية وميراث ماركسية القرن العشرين" **Dialectics of Modernity: On Critical Theory and the Legacy of Twentieth Century Marxism** المنشور بكل جدية فى مجلة "ذا نيو لفت ريفيو" فى عام ١٩٩٦^(١٠). ويضم المقال مسحاً رائعاً وتقييماً لمنجزات الماركسية فى القرن العشرين. وكانت فقرة مكونة من ستة أسطر ونصف كافية لتقديم مناقشة أهمية

الحركة النسائية بالنسبة لماركسية القرن العشرين وختامها. ونفس القدر بالنسبة للنوع. وعلى الأقل فقد مُنحت الماركسية اللاأوروبية واللامريكية صفحتين، غير أن منظور المناقشة الذي عفى عليه الزمن اتضح على الفور من العنوان الفرعى للقسم وهو "الماركسية فى العوالم الجديدة"، وهى تسمية كولونiale اتضح أنها تشمل كل تاريخ الماركسية فى أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية. لقد رُفضت على الفور مساهمة كل ماركسية القارات الثلاث تقريباً مقدماً. ويوضح المقال بطريقة مثالية نوعاً من المركزية الأوروبية المؤكدة لذاتها التى مازالت تتخلل الماركسية الغربية، تلك الأبوية الراحية المميّزة للماركسية الأوروبية التى كانت وراء مداخلتى فى "أساطير بيضاء". ولم يكن الأمر هو أن التابع لا يمكنه الكلام، بل كان المهيمن هو الذى لا يستمع إليه.

حين كنت أكتب "أساطير بيضاء" فى النصف الثانى من الثمانينيات، وقت الصراعات فى أمريكا اللاتينية وجنوب أفريقيا وفلسطين والجزائر، كان هناك الكثير مما يحدث من الناحية السياسية. وكما هو الحال الآن، كان هناك الكثير مما يجب عمله فى ذلك الوقت. إلا أنه إدراكاً منى لتوجيه التوسير بأن النظرية كذلك شكل من أشكال السياسة، فقد أردت أن أفعل شيئاً على المستوى النظرى أيضاً. وكان الوقت قد حان لدراسة نظرية القارات الثلاث باعتبارها نظرية، وباعتبارها شكلاً من أشكال المعرفة، وليس مجرد إنتاج فرعى هامشى للصراعات يمكن اختزاله إلى "قومى" (يكفى أن كتاب هومى بابا Homi Bhabha الأول كان معنياً بإعادة بحث القومية ذاتها، حيث نقل المسألة كلها خارج المقابلة التقليدية بين الماركسية والقومية)^(١١). وكما هو حال كثيرين يعملون فى مجالات غير معترف بها داخل الخطابات اليسارية السائدة، بدا أن عناصر بعينها من ما بعد البنيوية (حددت بشكل واسع لتشمل التوسير Althusser وفوكو Foucault وديدا Derrida وديلوز Deleuze) تقدم طرق تفكير بشأن المشكلات التى كانت خارج الإطار المفاهيمى لليسار التقليدى. ومع أن "ما بعد البنيوية" مرفوضة عموماً من ماما فى الوقت الراهن (حيث يُعاد التوسير بسهولة إذا دعت الحاجة إلى أرض البنيوية الأكثر أمناً)، فإن سياستها الخاصة بتمكين رؤى العالم الثالث كانت مثمرة إلى حد كبير. وليس هذا بالأمر المستغرب تماماً مادام الكثير من أفكارها الملهمّة النظرية الأساسية هى نفسها خاصة بالعالم الثالث، على عكس ما بقوله الكتب المدرسية عن هذا الموضوع.

كانت الإشكالية النظرية بالنسبة لى دائماً هي مسألة كيفية كشف سياسة ما، تقوم على رواية للتاريخ غائيتها موجهة على الدوام نحو خاتمة لا ترحم، من أجل الاختلاف. كيف يمكن للعام البلشفي أن يراعى الخاص غير القابل للترجمة، وبالتالي المهم؟ ولم تكن تلك وسيلة للقضاء على الماركسية، بل طريقة لتطويرها وتوسيعها، حيث تدمج عمل الترجمة الذي كان يستهدف الماركسية خارج الغرب كي تلبي حاجات شعوب الأرض التابعة التي جرت العادة أن تهملها الماركسية الأنجلو أوروبية أو تقلل من أهميتها. وكما هو الحال بالنسبة للمرأة نفسها، كانت ثورتها تأتي بعد ذلك دائماً. والواقع أنها كانت تأتي أولاً بالنسبة للمرأة. ففي الوقت الذي كان فيه الكتاب قيد التأليف، كانت الماركسية هي التكوين السياسي وكذلك النظرى السائد للييسار، ولم يعد أحد يظن أنه من الممكن القضاء عليها، مثلما أنه لم يكن بالإمكان تدمير حي المال في لندن بكامله بقنبلة سيمكس تشيكية يزرعها الجيش الجمهورى الأيرلندى. وبعد ذلك، ومع انهيار اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية، كانت الأمور مختلفة إلى حد ما. فالواقع أن أزمة الماركسية، وانهيار الهيمنة الفكرية للماركسية، سبقا انهيار هيمنة الاتحاد السوفيتى؛ كما كتب جريجورى إليوت Gregory Elliott فى عام ١٩٨٧: "ذلك أنه ثبت عدم صمود الماركسية على وجه التحديد فى مواجهة المسائل والاختبارات الصعبة التى طرحها عليها القرن العشرون. فهل تطرح النظرية ويقرر التاريخ المصير؟ ليس الأمر كذلك على وجه الدقة..."^(١٢). ولم تكن النظرية الماركسية مسئولة عن التاريخ، إلا أنه كان لابد لها، كما قال ألتوسير، أن تكون قادرة على تقديم تفسير للانحرافات التاريخية الخاصة بالتطبيق السياسى للماركسية.

لم يكن الغرض وقتها، مثلما هو الحال، هو عدم الإشارة إلى أن الماركسية لا حول لها ولا قوة فى مواجهة الرأسمالية المعاصرة، بل إتاحة النظرية الماركسية لتأثير الحركات الجماهيرية، وخاصة تلك التى خارج أوروبا، وتضمين الصراعات الحديثة التى بينت كيفية إعادة تصور العالمين الكولونى والى الكولونىالى الجديد، وكيف كانا هما نفساهما جوهريين بالنسبة لأية رواية خاصة بتكوينات الحداثة. فى ذلك الوقت كانت الدرجة التى طرح بها الناشطون activists المناهضون للكولونىالية للنقاش أقل وضوحاً بالنسبة لى. ومع تزايد اهتمامى بالموضوع منذ ذلك الوقت، ازداد مدى وضوح هذا

العمل بالنسبة لى، وازداد الإهمال من جانب ماما واليسار الأوروبى - مع الاستثناء الملحوظ لجان بول سارتر Jean Paul Sartre - وضوحاً. ومن المؤكد أن المفكرين ما بعد الكولونىاليين الذين يُناقش عملهم فى "أساطير بيضاء"، وكانوا يتيحون رؤى النظرية الأنجلو أوروبية المحدودة، قد مكّنهم العمل الذى سبقهم واعتمدوا عليه. إلا أنهم لم يكونوا يكررون النظرية الماركسية المناهضة للكولونىالية التى وضعت أثناء كفاح التحرير؛ فقد كانت تتحول إلى شىء جديد، أى إلى أداة للمعارك والظروف المتغيرة الخاصة بزمانهم. ولكى يفعلوا ذلك، اتبعوا أفضل تراث للمفكرين والناشطين المناهضين للكولونىالية؛ حيث أخذوا عناصر مهمة من الخطاب الراديكالى الغربى ودمجوه فى المعارضة الخاصة بهم.

١ - حدود الماركسية الأوروبية

نتجت النظرية ما بعد الكولونىالية عن تجارب ذات أصول ثقافية وقومية شتى، والطرق التى يؤثر بها لون البشرة على حياة أى شخص فى الحاضرة، والطرق التى يحدد بها مسقط رأسك نوع الحياة التى ستتعلم بها فى هذا العالم؛ إن كانت متميزة ومبهجة أم مكبوتة ومستغلة. ولكى يفصل المنظرون ما بعد الكولونىاليين إجراءاتهم الخاصة بالبحث وإعادة الصياغة، اتجهوا إلى خطابات المعارضة التى وضعها أشخاص مثل سيزير Césaire وفانون Fanon وميمى Memmi وكابراى Cabral بالإضافة إلى العمل النظرى لليساى الأوروبى. وبينما يرفض ماما ما بعد الكولونىالية فى الغالب على أساس انحرافات السياسية النظرية، ولجراتها على شغل نفسها من الناحية النظرية وكذلك العملية بمشكلات الشعوب المحرومة المعاصرة، أو الشعوب التى أضرتها تجارب الهجرة الجبرية، والاستغلال، والقمع بكل أشكاله، فإن السؤال اللافت للانتباه هو لماذا وجد المنظرون ما بعد الكولونىاليين فى ما بعد البنىوية شيئاً ما لم يمكن للماركسية التقليدية تقديمه من ناحيتها. ما الذى كان ناقصاً؟

أشير فى بداية "أساطير بيضاء" إلى أهمية حقيقة أن كثيرين ممن يوصفون بأنهم "ما بعد بنىويين" بدأوا بعيداً عن أصلهم الباريسى؛ ذلك أنه من الخارق للعادة أن نسبة

كبيرة منهم خرجت من الجزائر. ومنذ ذلك الوقت أوضحت بصورة كبيرة الدرجة التي يمكن بها ربط جوانب بعينها من ما بعد البنيوية، مثل عمل دريدا، بالرؤى السياسية الخاصة بالجزائريين المستعمرين. بل وأشارت إلى أنه يُستحسن تسمية ما بعد البنيوية بالنظرية الفرانكومغربية^(١٣). فقد كان أى شخص يقاتل من أجل الاستقلال فى الجزائر الفرنسية خلال الخمسينيات والستينيات، أو حتى أى شخص متعاطف مع قضيتها مثل سارتر، تربطه بالضرورة علاقة معقدة بالماركسية فى ذلك الوقت، بما أن الأحزاب الماركسية الجزائرية والفرنسية (وإن لم تكن الإيطالية) تدعم استمرار حكم فرنسا للجزائر - *Algérie française* - وهو السبب الذى كان وراء حظر بن بيلا الحزب الشيوعى الجزائرى فور الاستقلال. وهذه الأنواع من التفاصيل المحددة الخاصة بالتواطؤ الكولونىالى فى تاريخ التطبيق السياسى للشيوعية - ورد الفعل المعقد بالضرورة نتيجة لذلك بين الناشطين المناهضين للكولونىالية على اليسار - لم يعالجها قط من يهاجمون النظرية ما بعد الكولونىالية من منظور الماركسية الأوروبية التقليدية. ولم تحظ كل حركات التحرير، وحتى الاشتراكية منها كما فى الجزائر، بدعم أحزاب اليسار فى الحاضرة الإمبريالية أو فى المستعمرات نفسها. وكمثال آخر، رفض زعيم الحزب الشيوعى البوليفى، "الخائن" ماريو مونهى *Mario Monje*، التعاون مع تشى جيفارا عام ١٩٦٦ فى محاولته لشن حملة حرب عصابات على البر الأمريكى اللاتينى. وجعلت خيانة مونهى لجيفارا بلا شبكة دعم لوجيستى، فأصبح نتيجة لذلك مكشوفاً ويات موقفه ضعيفاً فى جبال بوليفيا حيث أسره فى النهاية الجيش البوليفى الذى دربته وكالة الاستخبارات المركزية وأعدمه^(١٤). من ناحية أخرى كان الموقف فى جنوب أفريقيا مختلفاً جداً؛ فقد وفر الحزب الشيوعى واحداً من الفضاءات السياسية القليلة التى كان يمكن فيه للبيض أن يتخذوا مواقف مضادة بشكل مطلق للفصل العنصرى. وكان الحزب الشيوعى كذلك هو الذى أصر على الموقف غير العنصرى - هنا كان عمى الألوان الذى كان إشكالياً إلى حد كبير فى بريطانيا مؤسساً للتحالف المناهض للفصل العنصرى مع المؤتمر الوطنى الأفريقى - وهو الموقف الذى كان من الواضح أنه مختلف عن موقف مؤتمر عموم أفريقيا، أو حركة الوحدة اللاأوروبية بقدر أقل. وكانت تلك الأشكال السياسية المختلفة تعنى أنه لهذا السبب بدا نقد "أساطير بيضاء"

٢ - ثورة داخل الثورة

هكذا انتفضت التجربة المعاشة ضد الخاتمة النظرية المغلقة، حتى في أوروبا. فقد نشأت أحداث مايو ٦٨ في أوروبا إثر المظاهرات المضادة للحرب في فيتنام، وهي الحملة المناهضة للإمبريالية التي زادت من الراديكالية وانتشرت في أنحاء العالم، ذلك العالم الذي كانت الثورة تحارب فيه على مستوى المقاومة المسلحة والثقافية، وكانت هيمنة القوة الإمبريالية فيه يتحداها ويقاثلها نوع جديد من الوعي الثوري. وبينما كانت حركات التحرر الثورية تسير سيرها، كانت أحزاب اليسار الأوروبية قد أصبحت بيروقراطية، وتعانى من الشقاق الحزبي، وفقدت اهتمامها بالثورة. فكيف يمكن استيعاب هذا التغير من الناحية النظرية؟ ما هو السبيل إلى كسر تصلب الماركسية الأكاديمية، أو "الشيوعية البائدة" حسب التعبير الذي كان يتداول في باريس في ذلك الوقت، والموازي لقصر نظر الحزب؟ ما هي الطريقة التي يمكن بها تحديد دخول ووجود روايات التواريخ والثقافات المختلفة على المسرح الذي ظل بشكل متشدد داخل النطاق الحاصر البرجوازي القومي الأوروبي المركزى Eurocentric الأبيض؟ ورغم تحقيق حركات التحرر أثراً شعبياً عبر أوروبا والولايات المتحدة، فهي لم تسجل سياسياً، من ناحية الحملات السياسية اليسارية الأساسية، أو مفاهيمياً، من ناحية رد الفعل الفكرى تجاه العمل النظرى الذى تنفذه.

يمكن القول إن ١٩٦٨ تميز اللحظة التي حطمت فيها السياسة الشعبوية قالب اليسار الرسمى فى الغرب. وقد قال مايكل أنطوان برنييه Michael-Antoine Burnier لسارتر عام ١٩٧٣ :

بعد أقل من خمس سنوات تحطمت أخيراً لغة الماركسية التقليدية التي وسمتنا جميعاً وكنت تجادل بها خلال فترة طويلة من حياتك. إننا نشهد ظهور فكر جديد بظهور ماركوزه وفوكو وديلوز، وفي الملايين من الناس - سواء أكانوا مناضلين أم لا - الذين يشعرون فجأة بأنهم معنيون بالجدل النظرى الذى كان مقصوراً على عدة مئات من المتخصصين. وهنا نجد أفضل عنصر من عناصر الماركسية، وكذلك أفكاراً جديدة....^(٦٢)

أفضل عناصر الماركسية وأفكار جديدة؛ فقد ظهرت حركة كاملة من الراديكاليين المنشقين من أسفل تؤيد أهمية القضايا المهمة مثل حقوق المرأة، والأقليات العرقية والجنسية، ومشكلات العنصرية المؤسسية وسياسات الهجرة، والحبس المؤسسي؛ وفي الوقت نفسه قضية الكفاح المناهض للكلونيالية. لقد ميزت هذه الحركة رؤية جديدة عُرفت داخل فرنسا باسم "العالمثالية" tiersmondisme ؛ وهو افتراض عام بأن المرحلة الثورية قد انتقلت إلى كفاح العالم الثالث، وأن الثورة لن تُصنع في باريس أو روما أو برلين وإنما في جوهانسبرج أو هانوي أو سنتياجو. عند هذه النقطة، ولأول مرة منذ الفترة التي أعقبت الثورة البلشفية، تصادمت النظرية والسياسة المعاصرة الأوروبية والأمريكية الشمالية مع الحركات المناهضة للكلونيالية في العالم الثالث، داخل فضاء ثالث لتشكيل المقاومة الكونية للإمبريالية. واعتباراً من ١٩٦٨ جرى شيئاً فشيئاً تجميع قدر كبير من العمل الفكري المنتج داخل الكفاح المناهض للكلونيالية ومفصلته مع الخطابات الغربية المعارضة، ثم استُخدم بعد ذلك ضد المعرفة والقوة الأوروبية المركزية المهيمنة. وكان لابد أن تصبح المداخلات النظرية الملهمة والنشطة الناتجة عن ذلك التزامن السياسي معروفة بـ "ما بعد الكلونيالية".

كان هناك عامل مهم آخر في هذا السيناريو السياسي النظري، كما اعترف مارشيه؛ وهو الوجود القوي لبديل ما، هو ماركسية العالم الثالث. وكان ما دعم معارضة حرب فيتنام والثقافات الأبوية الغربية التي تنفذها هو تلك التركيبة المندفعة الخاصة بالثورة السياسية والنظرية الراديكالية في الصين المعاصرة. إذ نشطت السياسة الشعبوية للثورة الثقافية في الصين الخميرة النظرية لمايو ٦٨: **Nous sommes le pouvoir** (نحن القوة)، كما كان الشعار يقول.

حين كان ماوتسي تونج ناشطاً سياسياً شاباً رفض كذلك معتقدات الحزب الشيوعي التقليدية، مما كلفه الكثير على المستوى الشخصي، كى يخلق سياسة راديكالية من كفاح الفلاحين طُورت من خلال حرب العصابات ضد الإمبريالية اليابانية ثم استبداد الكوومنتاج. وكانت أول مداخلات نظرية كبيرة لماو هي نقل ظروف الغرب الصناعي إلى اقتصادات العالم الثالث الفلاحية الزراعية. وعلى عكس المذهب الستاليني الخاص بسيادة البروليتاريا الصناعية في المدن الكبرى على ساحل الصين

التحرير المناهض للكونيالية عبر قارات الجنوب الثلاث بمؤتمر القارات الثلاث بهافانا عام ١٩٦٦ . وقد أفضت في شرح أهمية المؤتمر والعمل الذي بدأه في موضع آخر؛ أما هنا فتؤد أن أظل داخل مجال "أساطير بيضاء" كى أبرز أهمية الأثر النظرى لماركسية العالم الثالث المناهضة للإمبريالية داخل ما بات يسمى "ما بعد البنيوية" كما طُورت في باريس من الستينيات حتى الثمانينيات، وبدلاً من تأكيد أهمية صلاتها الأساسية بالجغرافيا المناهضة للكونيالية الخاصة بالسياسة الفرانكومغربية، كما فعلت في "أساطير بيضاء" وأماكن أخرى، أود هنا التركيز على تاريخ مختلف وإن كان وثيق الصلة. وأنا لا أدعى بالطبع أن هذا يمثل القصة كلها؛ بل إننى أؤكد عليه هنا لأنه يُكتب إلى حد كبير حتى الآن من كتب التاريخ. لماذا؟ للسبب المعتاد بالطبع؛ وهو أن أى مدخل "عالم ثالث" في المعرفة أو السياسة الغربية عادة ما يُقمع وسرعان ما يُنسى، وربما تجاهل اليسار في الغرب ماركسية العالم الثالث من الناحية التاريخية، ولكن لا يعنى هذا أنه لم تكن له آثاره فيما بينها. ربما يكون قد نسيها، ولكنها لم تنسه.

٣ - التاريخ والاختلاف، عند ماو والتوسير

كان هناك جانب أساسى فى ما بعد البنيوية، غير معترف به كثيراً فى الوقت الراهن، لا يربطها بسياسة مايو ٦٨ فحسب، بل يربطها مباشرة بنظرية الكفاح الراديكالى المناهض للكونيالية والإمبريالية فى زمنها وبتطبيقه. وإحدى إجابات السؤال الذى طُرح من قبل - ما الذى وجده المنظرّون ما بعد الكولونياليون فى ما بعد البنيوية وكان مفقوداً فى الماركسية التقليدية؟ - هى الماوية. ويمكن أن يفسر هذا كذلك ملمحاً من ملامح ما بعد الكونيالية حير كثيرين؛ وهو كيفية تفسير الانفصال الظاهر، الذى تجمع بواسطته بين أصولها السياسية فى الكفاح المناهض للكونيالية وعناصر "النظرية العليا" لما بعد البنيوية الباريسية؟ الإجابة أن النظرية ما بعد الكولونيالية تعترف بوجود خيط مشترك عبرهما وتبرزه؛ فكلتاهما فى جزء ما، وبأشكال مختلفة، من إنتاج الماوية. وبعد عام ١٩٤٩ تطورت ماركسية القارات الثلاث بطرقها الخاصة من أفكار ماركسية ماو المنشقة اللاغربية، وهو استحداث على مستوى النظرية والتطبيق

- (43) Althusser and Balibar (1970) 301.
- (44) Althusser and Balibar (1970) 141, cf Althusser (1972), 165.
- (45) Althusser and Balibar (1970), 142. It is noticeable that Sprinker (1987, 176) cites Althusser's critique of Sartre without registering any disquiet with its implications.
- (46) Macchiochi (1973), 320 (Althusser's emphasis), 303.
- (47) Althusser (1972), 166.
- (48) Althusser (1972), 186.
- (49) In this context, it is striking that in the passage from 'The Crisis in Marxism' cited below, Althusser characterises Algeria as a defeat, Vietnam as a victory.
- (50) Foco (hearth, domestic circle, home) was the name given by Guevara to the free-standing guerrilla group that established itself as a centre of military operations in the countryside, working amongst the peasantry: 'the guerrilla band is an armed nucleus, the fighting vanguard of the people' (Guevara 1998, 10).
- (51) Anderson (1997), 684.
- (52) Guevara (1967).
- (53) Guevara (1998). For a summary of criticisms of foquismo theory, see Childs (1995).
- (54) Scriven (1999), 73-8.
- (55) Mao (1961), Giap (1962), Piao (1965).
- (56) Young (2001a), 296-7.
- (57) Feltrinelli (2001), 327.
- (58) Sartre (1988), 37-40. Cf. Aronowitz (1981).
- (59) Althusser (1978), 229, 231, 236.
- (60) See Connell (2002), Wignaraja (1993).
- (61) Laclau and Mouffe (1985).
- (62) Laclau and Mouffe (1985), 62; Laclau (1985).
- (63) Laclau (1985), 29-30.
- (64) Laclau (1985), 41.
- (65) Literally, the phrase *points de capiton* means 'upholstery buttons' (as on a mattress). Lacan uses the image to describe the overdetermined points around which the flux of the unconscious becomes organised.
- (66) Young (2003).
- (67) Mamdani (1996), Mbembe (2001).

وفى مقارنة مستفزة لفشل الثورتين الفرنسية والروسية، قال إن المشكلة تنبع من حقيقة أنه لا يمكن لأية طبقة، بروليتارية كانت أم برجوازية، أن تصبح الطبقة الحاكمة دون أن تأخذ على عاتقها بعضاً من الدور التاريخى للطبقة الحاكمة؛ وخاصة إذا كانت ترى فى الوقت ذاته أن "التاريخ يحمل شفاءه فى داخله".

**افتراض أنه سيكون بمقدور البروليتاريا الدفاع عن
نكتاتوريتها ضد التشابك والتعقد هو افتراض أن فى التاريخ
نفسه مبدأ ضخماً ومحدداً ينزع عنه الغموض ويلخصه ويحققه
ويخلقه (٢٢١).**

وبدلاً من ذلك اقترح ميرلو بونتي جدلاً مفتوحاً يعترف بالتباس الماركسية ويتخلى عن المطالبة بالمنطق الجدلى الخاص بالتاريخ باعتباره تقدماً للحقيقة الموضوعية^(٢٠). أو بعبارة أخرى، أكد ميرلو بونتي على أن الماركسية يمكنها فقط تشكيل كليتها من خلال انعطافاتها الدائمة عن نفسها.

society' (228). Despite his opposition to the Algerian war and to de Gaulle, Merleau-Ponty himself, however, lapsed into political silence. Although he had anticipated and enabled much of the critical scepticism that was to be deployed in the sixties and seventies, the implications of his position for a radical politics of the left still had to be thought through.

الفصل الثالث

مبالات سارتر

وهكذا يكشف العالم والإنسان عن نفسيهما عن طريق
المشروعات. وكل المشروعات التي قد نتحدث عنها تنحصر في
مشروع واحد، هو مشروع صنع التاريخ.

جان بول سارتر^(١)

اتخذ سارتر المسار المعاكس لميرلو بونتي وسعى في المقابل إلى تعريف ماركسية
أصلية جديدة. وكان مشروعه في كتاب "نقد العقل الجدلي" (١٩٦٠) بمثابة دفاع
فلسفي عن الماركسية وفكرها الجدلي من خلال مطالبتها بأن تكون التفسير المشروع
الوحيد للتاريخ، فهي "الفلسفة التي لا يمكن تجاوزها في زماننا"^(٢). إلا أن سارتر لم
يكن أكثر استعداداً من ميرلو بونتي كي يستعيد ما يوصف بأنه العضوانية
organicism الماركسية، التي تتطور فيها قوانين التاريخ تبعاً لقوة الدفع المستقلة
الخاصة بها. ولعدم رغبة سارتر في عرض التاريخ باعتباره قانوناً متجاوزاً خارج
الإنساني، فقد كان حريصاً على تمييز دعاواه عن إضفاء إنجلز Engels الشرعية على
الجدل باعتباره قانون الطبيعة^(٣). ذلك أنه كان يسعى في المقابل لإثبات أن التاريخ يحقق
مساره ودلالته بناء على أعمال الناس، حتى ولو كان الناس هم في الوقت ذاته كذلك
نتاج التاريخ. وكان ميرلو بونتي قد اتهم سارتر الوجودي بإنكار التاريخ ومحاولة
تجميع كل شيء في المقابل "عن طريق بطولة الأنا اليائسة وحسب". ولذلك حاول سارتر
بيان أن الأمرين ليسا متقابلين. فهو يقول إن الجدل من نتاج الذاتية الإنسانية وليس
محفوراً داخل التاريخ نفسه، كما يؤكد في الوقت نفسه حقيقة ما تقوله الماركسية

عن وجود تاريخ واحد له دلالة واحدة؛ أى ذلك التاريخ الذى تعود فيه الاختلافات كافة باعتبارها متشابهة. ولذلك يتوقف كل شىء على قدرة سارتر على تأكيد الاعتماد المتبادل الخاص بهذين الادعاءين.

وفى مستهل كتاب "النقد" أعلن سارتر أن "هناك أزمة فى الماركسية". ويصف سارتر هذه الأزمة، التى ليست الأولى ولن تكون الأخيرة، بأنها نتيجة مفارقة أصبحت فيها المادية التاريخية "فى الوقت ذاته الحقيقة الوحيدة الخاصة بالتاريخ وتردد الحقيقة" (١ ، ١٩). وفى الوقت الراهن قد نقول إنه اتضح أنه مختلف عن نفسه. وكانت تلك هى المعضلة التى اكتشفها ميرلو بونتي؛ ولكن بدلاً من أن يشك سارتر فى حقيقة الماركسية، سعى إلى إزالة تردداتها. فقد قال إنه رغم تفسير المادية التاريخية لأشكال الواقع الإنسانى وظروفه بطريقة مرضية ، فهى لم ترسخ قط مشروعية وجودها من الناحية النظرية، ولم تبين فى يوم من الأيام أنها لا تشكل جوهر الواقع فحسب وإنما صورته المنطقية كذلك. ولذلك فإنه لكى يثبت سارتر حقيقة الإجمال المرتقب للتاريخ فى دلالة واحدة، كانت مهمته الفلسفية الأولى وضع أساس من الناحية الإستمولوجية لمقولته عن طريق إثبات مشروعية الجدل نفسه، وبالتالي بيان ليس فقط أن التاريخ قابل للفهم من الناحية الجدلية، بل كذلك السبب فى أنه ينبغى أن يكون بالضرورة أيضاً. وطبقاً لما يقوله سارتر فإن "الجدل منهج وحركة داخل الشىء" (١ ، ٢٠). وتؤكد الماركسية فى الوقت نفسه أن كلاً من نسق المعرفة وبنية الواقعى جدليان، غير أنها لم تثبت نسق المعرفة؛ فهى تقيم ادعاها بدلاً من ذلك على "الجدل الدوجماتى" الخاص بالعلوم الطبيعية. وبناء على ذلك فإن جزءاً كبيراً من المجلد الأول من "النقد" مشغول بمحاولة إثبات الجدل بديهياً باعتباره المنهج الكلى وقانون الأنثروبولوجيا، حيث يحل محل المنهج الذى قدمه كانط من قبل للعقل التحليلى^(٤). ويعلم سارتر أن المجلد الثانى سوف يثبت "حقيقة التاريخ" (١ ، ٥٢):

سوف يحاول إثبات أن هناك تاريخاً إنسانياً واحداً ذا حقيقة واحدة ووضوح واحد؛ ليس عن طريق مراعاة المضمون المادى لهذا التاريخ، بل من خلال بيان أن التعددية العملية، مهما كانت، لابد أن تجمع نفسها باستمرار من خلال إضفاء الصفة الذاتية على تعدديتها على كل المستويات. (١ ، ٦٩)

